

ثانياً : أولوية العمل على النظر

أ.د. حسن حنفي (*)



1- هل للنظر أولوية على العمل ؟

أما الدعوى النقيضة، للنظر الأولوية على العمل، فإنها دعوى تظهر في لحظات تاريخية معينة عندما يستحيل العمل ثم يأتي النظر تعويضاً عن هذا العجز، وتفريغاً للطاقة في ميدان آخر أكثر أمناً. عندما تنسد طرق العمل لا تجد الطاقة أمامها إلا أن تظهر في النظر كطريق فرعى حتى ينزاح السد، وتعود الطاقة إلى مسارها الطبيعي في العالم من خلال الفعل الإنساني.

في الحضارة الإسلامية صحيح أن أول ما نزل من القرآن ﴿أَقْرَأ﴾، ولكن القراءة لا تعنى التعرف على الخطوط، قراءة المکتوب. فقد كان جبريل يعلم أن الرسول أمى لا يقرأ ولا يكتب. إنما القراءة هي التعرف على أفعال الله في الطبيعة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾. والعلم فعل التعليم ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٦﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٧﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٣٠﴾﴾. والنظر في القرآن ليس مجرد تأمل ومعرفة نظرية بل هو إِبْصَار ونظر بالعين. ليس فكراً مجرداً بل هو إعمال للحس، نظر للطبيعة والناس. وهو بداية السلوك والتوجيه في العالم، وليس التأمل النظرى الخالص. النظر هو الإِبْصَار ﴿وَتَرَبَّهَتْهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، والنظر في الطبيعة أيضاً للاعتبار ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾، والنظر إلى الحيوان ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾،

(*) أستاذ الفلسفة المتفرغ بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

والله أيضاً ينظر كيف يعمل الناس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. فالنظر علم، والله عالم، والإنسان عالم. وهو أيضاً نظر في الآثار كعظة وعبرة، تنظر النفس ماذا قدمت ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. والنظر إلى سنن المجتمع والتاريخ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾. وهو أيضاً انتظار كما أول المعتزلة ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٦٦﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٦٧﴾﴾ أى منتظرة الثواب أو العقاب، وذلك مثل انتظار الساعة وانتظار النعيم وانتظار العذاب. وهو نفس الاشتقاق ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٦٨﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (1).

ودعوة القرآن إلى طلب البرهان ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾، إنما هو تحدى لاستحالة وجود البرهان على الكذب والبهتان. وعندما يدعو القرآن إلى التعقل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وإلى التفكير ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن القصد هو الاعتبار والعظة أى دلالة الواقع للاستفادة به فى الحياة العملية وليس تشييد بناء نظرى خالص كبديل عن الواقع. المرة الواحدة الذى بها فعل "فكر" يقرن بالقرار وبالفعل ﴿إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ﴾، والباقى كله "التفكير"، أى التدبير فى آيات الله فى الكون وهى أغلب الاستعمالات ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ﴾ (2). والتفكير فى خلق السموات والأرض ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. والتفكير فى الناس ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾. والتفكير فى النفس ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾. والتفكير فرادى وجماعية ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْءٍ وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾. وقد يكون التفكير فى التاريخ وأحوال الأمم والشعوب بعد سماع قصص الأنبياء ﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فلا يوجد تفكير نظرى. إنما التفكير تفكير فى شيء.

(1) ورد لفظ "نظر" ومشتقاته فى القرآن (129) مرة أكثرها بمعنى الإبصار.

(2) ورد لفظ "فكر" ومشتقاته فى القرآن (28) مرة غالبها بمعنى التفكير فى الآيات.

وقد ورد لفظ "العقل" في القرآن أكثر الاستعمالات في صيغة استفهام استنكارى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وفي المضارع أكثر من الماضي، كحقيقة ثابتة أبدية وليست كحقيقة زمانية ماضية. وبالإضافة إلى الصيغة الاستفهامية الاستنكارية هناك صيغة التمنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والصيغة الشرطية ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾⁽¹⁾. والأهم هو الموضوع الذى يفكر فيه العقل. يأتى كلام الله أولاً ثم الآخرة والطبيعة ثم الأحداث التاريخية والمجتمع، ثم الأفعال والأمثال والوصية. ويتطلب العقل الفعل وعدم أمر الناس بالبر دون فعل ذلك ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. والعقل النظرى هو الذى يوجه العقل العملى ويمنع من الضلال ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. وهو الذى يمنع من الهلاك يوم القيامة ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾⁽²⁾.

وإذا صح ما يرويه الصوفية من أن "أول ما خلق الله خلق العقل فقال له أقبل فأقبل، أدبر فأدبر، وعزتى وجلالى ما خلقت إلى أعز منك" فإن العقل هنا هو العقل العملى، العقل الإرادى الذى يطيع. وطلب الحديث عدم التفكير فى ذات الله والتفكر فى آثاره ومخلوقاته إنما هى دعوة إلى التفكير فى الطبيعة من أجل اكتشاف قوانينها والسيطرة عليها من أجل إعمارها، والتوجه إلى ما هو أنفع وأكثر يقيناً. فخير الواحد يعطى معرفة ظنية ولكنه يؤسس عملاً يقينياً.

والفكر تفكر أى فكر منعكس على الذات، تأمل وتدبر الفكر تفكير فى النفس وهو التفكر. وهو أيضاً تفكر فى الطبيعة والكون⁽³⁾.

(1) ورد لفظ "عقل" فى القرآن (49) مرة، 29 منها استفهام استنكارى، والماضى مرة واحدة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

(2) كلام الله (10)، الآخرة، الطبيعة (3)، حوادث، مجتمع (2)، أفعال، أمثال، وصية (1).

(3) استعمل لفظ "فكر" فى الحديث (10) مرات.

وقد ورد لفظ "عقل" في الحديث بمعناه الاشتقاقي الحسى عقل البعير أى ربطه. فالعقل رباط وعلاقة وليس عقلاً بلا رباط يهيم فى أى واد. هو عقل موجه نحو غاية. وفى غياب العقل يكون البله والجنون والأسر. والصبية والحيوانات لا تعقل. والنساء ناقصات عقل طبقاً للرواية المشهورة "ناقصات عقل ودين" وتمرد عائشة عليه بأنها أعقل النساء. والعقل للكلمات وللكتب أى للوحي المقروء أو المدون. ويفهم بالعقل والقلب. والعقل للشعائر والعبادات لفهم دلالاتها ومقاصدها. وأفضل إنسان ما اجتمع فيه العقل والنسك⁽¹⁾.

وهو ما اتضح أيضاً فى علم أصول الدين عندما جعل المتكلمون موضوع العلم ليس الذات الإلهية بل الطبيعة والنظر فى ظواهرها ومكوناتها وجواهرها، وحركاتها وعللها. وبعد ذلك تأتى الأدلة على وجود الله. فالنظر فى الطبيعة سابق على النظر فى الله، والبحث فى المحسوس سابق على البحث فى المعقول. ومشاهدة المرئى سابق على اللامرئى الذى لا يعرف إلا عن طريق قياس الغائب على الشاهد. بل إن نظرية الذات والصفات والأفعال، لب النسق الأشعرى، إنما تقوم على قياس الغائب على الشاهد، قياس الذات الإلهية على الذات الإنسانية، فى الإنسان حقيقة وفى الله مجازاً. فالإنسان عالم قادر حى سميع بصير متكلم مرید بالحقيقة والله كذلك بالمجاز كما قال ابن الأيادى اللغوى قديماً وكما يروى الأشعرى فى "مقالات الإسلاميين". والنبوة فعل فى التاريخ وحركة فيه، وتحقق لحقائقها فى توالى الأزمان. ليست النبوة فقط معرفة نظرية بل تحقق عملى وحركة تاريخية تساعد على تقدم الشعوب. والمعاد ليس مجرد إيمان بالبعث والنشور بل هو استعداد له بالعمل الصالح. والإيمان والعمل والإمامة كل ذلك يشير إلى تحقق الوحي فى التاريخ، فى الفرد والجماعة، فى المواطن والدولة.

وفى أصول الفقه، وبالرغم مما يبدو على الأدلة الشرعية الأربعة، الكتاب،

(1) ورد لفظ "عقل" فى الحديث حوالى (150) مرة، نصفها للبعير وبعضها للنساء والصبيان والمجانين.

والسنة والإجماع والقياس من طابع استدلالى إلا أن الكتاب نشأ فى المكان والزمان، فى "أسباب النزول" و"الناسخ المنسوخ". الواقع يسأل والوحي يجيب⁽¹⁾. والسنة أيضاً التحقق النموذجى الأول للوحي فى الواقع، وللشريعة فى المجتمع، وللنبوة فى الدولة. والإجماع أمة فى التاريخ، وشعوب فى الزمان والمكان. لكل إجماعه طبقاً لظروف العصر دون إلزام اللاحق بالسابق. والاجتهاد بالرغم مما يبدو عليه من طابع استدلالى، استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها اليقينية إلا أنه يقوم على التعليل، تعليل الأفعال ومعرفة مكوناتها وعللها. والأشكال الحرة للقياس مثل الاستحسان والاستصلاح والاستصحاب إنما تعتمد على المصالح المرسله فى العالم خارج العقل تحقيقاً لمنافع الناس.

وعرض له الحكماء أيضاً فى الأخلاق التأملية مثل ابن سينا ومسكويه. وهى فى الحقيقة أخلاق نظرية طبقاً لقسمة قوى النفس إلى ثلاث: القوة الشهوية وفضيلتها العفة، والقوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة، والقوة العقلية وفضيلتها الحكمة. ومن التوازن بين هذه القوى تنشأ فضيلة رابعة هى العدالة. وأعلاها الحكمة. وبصرف النظر عن مصدر هذه القسمة، أفلاطون أو غيره إلا أنها عرضت على العقل فقبلها، والعقل أساس النقل. وهو القاسم المشترك بين القرآن واليونان، بين الشريعة والحكمة، بين الدين والفلسفة. فى الظاهر تبدو الأخلاق نظرية تأملية. وفى الحقيقة هى أخلاق عملية تبدأ من النفس كى تنتهى إلى تقوى القلب.

وبالرغم من أن المدينة الفاضلة عند الفارابى يتربع على قمته الملك الفيلسوف والنبى والإمام ويقع فى قاعدتها العمال والفلاحون والصيادون، وما بينهما الجند والعلماء إلا أن ذلك نوع من تقسيم العمل، والتدرج فى السلطة. الكل عمل سواء من يعمل بعقله أو من يعمل بيده.

(1) انظر دراستنا: الوحي والواقع، دراسة فى أسباب النزول، هموم الفكر والوطن ج 1 التراث والعصر والحداثة، دارقبا، القاهرة 1998 / ص 17 - 56.

إن المعرفة الإشراقية عند الحكماء أو النور الذي يقذفه الله تعالى في القلب عند الصوفية ليست معرفة نظرية خالصة بل هي نتيجة لأعمال القلوب، وتصفية النفس. فالعمل يسبق النظر. ومن أراد أن يعرف مثل معرفتنا فليجرب مثل تجربتنا كما قال الغزالي في "المنقذ من الضلال".

وفي العلوم النقلية الخمسة، القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقهاء، إثنان منها عمليان، السيرة والفقهاء، وثلاثة منها نظرية، القرآن والحديث والتفسير. وهي نظرية في الظاهر عملية في الباطن. فالقرآن رسالة عملية للفعل والتحقق وحمل الأمانة وأداء الرسالة. وقد تم جمعه وترتيبه بفعل البشر والحديث تفصيلات وإيضاحات عملية للقرآن. جمعه الرواة. ومن شروط الرواية تطابق النظر مع العمل عند الراوي. والتفسير لا يهدف فقط إلى إعطاء مزيد من المعلومات التاريخية أو اللغوية أو التشريعية عن القرآن بل يهدف إلى توجيه الأمة وإصلاحها كما هو الحال في تفسير "النار" لرشيد رضا، و"ترجمان القرآن" لأبي الأعلى المودودي، و"في ضلال القرآن" لسيد قطب.

والعلوم العقلية الرياضية والطبيعية الخالصة تبدو في الظاهر أبنية معرفية وهي في الأصل علوم عملية. فالحساب إنما نشأ لضبط المواريث، والهندسة لبناء المساجد، والفلك لمعرفة مواقيت الصلاة والحج والاهتداء بالنجوم في الأسفار. ونشأ الطب لمعالجة جرحى الفتوحات، والكيمياء لصناعة الأدوية، والطبيعة لصناعة السلاح.

وفي الحضارة اليونانية، لم يضع فيثاغورث فقط أسس علم الحساب بل كان صاحب نحلة صوفية عملية تقوم على التطهير. ونظرية المثل عند أفلاطون تبدو في الظاهر نموذجاً لأولوية المعرفة على الوجود مع أنها استقراء للكليات من الجزئيات طبقاً للجدل الصاعد كما هو الحال في الفن المصري القديم الذي نقله أفلاطون إلى نظرية المعرفة وعلاقتها بالوجود.

بل إن المنطق الذي يعتبر خالدة أرسطو وأعظم ما عبر عن عبقرية اليونان إنما هو تجريد لممارسات السوفسطائيين وتنظير لجدل سقراط معهم،

وتحليل لأشكال القول دون مضمونه. وهو مرتبطب أشد الارتباط بخصائص اللغة اليونانية كما لاحظ المسلمين منذ الشافعي في "الرسالة" حتى ابن تيمية في "الرد على المنطقيين" و"نقض المنطق".

ولا فرق بين الطبيعيات والإلهيات. فهما علم واحد يتجاذبه جدل السلب والإيجاب. المقولات واحدة، الحركة والسكون، الجوهر والعرض، الصورة والمادة، القوة والفعل، مرة إثباتاً للطبيعة ونفيًا لما بعد الطبيعة فتنشأ الطبيعيات، ومرة نفيًا للطبيعة وإثباتاً لما بعد الطبيعة فتنشأ الإلهيات.

وترجع أولوية النظر على العمل إلى نزعة معرفية إشرافية صوفية خالصة بدأها أفلوطين عندما اعتبر أن الفعل ضعف في التأمل، يفيض عن الواحد بفعل التأمل وليس بفعل الخلق. وربما كان ذلك رد فعل على المسيحية ووقوعها في التشبيه، الله المشخص والخلق بالفعل. وربما كان أثرًا من آثار الغنوصية الشرقية.

واستمر في هذه الدعوة أوغسطين باحثًا عن الحقيقة سواء في حواراته الفلسفية أو في تنظيره للعقائد المسيحية. وأوغسطين بعد تحوله إلى المسيحية كان يعرف الحقيقة مسبقاً، ثم استخدم ثقافته الأدبية والفلسفية لتبريرها. كان هدفه عملياً وليس نظرياً، الدفاع عن المسيحية ضد الشكاك والمانويين والدوناتيين والوثنيين وكل خصوم الإمبراطورية الرومانية. فقد كان مفكر السلطان.

واستمر هذا التيار الإشرقي الأفلاطوني طوال العصر الوسيط المتقدم عند القديس بونافنتورا في "طريق الروح إلى الله". وتحول إلى نزعة صوفية خالصة تبدأ بمجاهدة النفس وتصفية القلب. فالعمل شرط النظر. وتحول إلى شعار "الإيمان باحثاً عن العقل" عند القديس أنسيلم، الإيمان أولاً ثم البرهان ثانياً، مما يقتضى أيضاً تصفية القلب قبل صفاء الذهن⁽¹⁾.

(1) انظر ترجماتنا لمحاورة "المعلم" لأوغسطين و"الإيمان باحثاً عن العقل" لتوما الإكويني و"الوجود والماهية" لتوما الإكويني في "نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1968. انظر أيضاً: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة 1990، ص 235-245.

ثم بدأ عصر الإحياء فى القرن الرابع عشر، إحياء الآداب القديمة، تخلصاً من الفلسفة المدرسية والعقائد المسيحية وعوداً إلى الأساطير اليونانية وعظمة الإنسان. لم يكن نظرية فى المعرفة بقدر ما كان نهضة حضارية جديدة لإنهاء العصر الوسيط وبداية فجر العصور الحديثة.

وكان الإصلاح الدينى فى القرن الخامس عشر أيضاً ليس فقط نقداً للعقائد "الكاثوليكية" بل احتجاجاً دينياً على القديم وسلطة التراث والتوسط بين الإنسان والله، وأضعافاً بدائل مضادة، الكتاب وحده، حرية التفسير، والكتاب المقدس باللغة الوطنية، وحرية المسيحي، والعلاقة المباشرة بين الإنسان والله، والبساطة فى بناء الكنائس دون بقايا الوثنية الرومانية القديمة. كانت البروتستانتية مرحلة فى مسار التاريخ، وتحولاً فعلياً فى الوعى الأوروبى.

وأخيراً جاء عصر النهضة فى القرن السادس عشر ليغير ليس فقط مصدر المعرفة، من القديم إلى الجديد، ومن بطليموس إلى كبلر وجاليليو ثم إلى نيوتن، ومن النقل إلى العقل، ومن النفس إلى البدن بل ليغير مسار التوجه الحضارى العملى من العود إلى الماضى إلى التوجه نحو المستقبل بعد أن كسب المحدثون المعركة ضد القدماء فى الفكر والأدب والفن والعلم وفى كل مظاهر النشاط الإنسانى⁽¹⁾.

وفى بداية العصور الحديثة أسس الوعى الأوروبى مشروعه المعرفى فى "الكوجيتو" الديكارتى "أنا أفكر فأنا إذن موجود". وبدأ الاعتزاز بالمعرفة الجديدة و"العلم الجديد"، و"العلوم الجديدة" و"الأورجانون الجديد"، والتحقق من صدق هذه المعارف باتفاقها مع العقل ومع الطبيعة. والحقيقة أن هذا المشروع المعرفى الضخم إنما كان الهدف منه السيطرة على الطبيعة وتأسيس المجتمع المدنى من أجل السيطرة على العالم. فقد واكب ما سُمى بالكشوف الجغرافية منذ أواخر

(1) انظر: مقدمة فى علم الاستغراب، دار الفنية، القاهرة 1990، ص 235-245.

القرن الخامس عشر بعد سقوط غرناطة ونهاية فترة الحكم الإسلامي في المغرب مع بنى الأحمر وبدايته في المشرق مع محمد الفاتح. لم يكن مشروعاً نظرياً خالصاً بل كان وراء الإلتفاف حول القارات من البحار والمحيطات بعد أن فشل الدخول إلى القلب عن طريق البحر الأبيض المتوسط كبحيرة شبه مغلقة. وتم الإلتفاف حول نصف الكرة الغربية من الشرق من الساحل الأطلسي ثم الاندفاع نحو الغرب حتى الساحل الغربي على المحيط الهادى. ثم تم الاندفاع جنوباً حول أفريقيا ثم شرقاً إلى جنوب شرق آسيا ومن ثم الاستيلاء على العالم القديم كله في أفريقيا وآسيا. العقل المطلق والسيطرة المطلقة صنوان. والعقل الشامل والحكم الشامل قرينان. وكان ذلك كله لخدمة التجارة عبر البحار في العصر التجارى ما قبل المرحلة الرأسمالية⁽¹⁾.

ثم تحول العقل من أداة معرفية ومنهج للكشف إلى عقل اجتماعى يفجر الأنظمة السياسية اللاعقلية مثل الأنظمة الكنسية والملكية. فقامت الثورة الفرنسية بعد أن تحول العقل إلى تنوير، والتنوير إلى ثورة. واكب العقل الملكيات، وواكبت الثورة الجمهوريات، وكا عرض ماركوز فى "العقل والثورة". ووضع العقل مُثل التنوير، الحرية والإخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية والطبيعة والتقدم، أفضل ما أخرج الوعى الأوروبى للإنسانية.

وكما امتد العقل من الإنسان إلى المجتمع امتد مرة ثانية من المجتمع إلى التاريخ وتحول إلى عقل تاريخى مكتشفا قانون التاريخ ومسار التقدم. وأصبح لكل شىء عند هيجل تاريخ، الفلسفة والدين والفن والجمال. وأصبح تاريخ العالم هو قضاء العالم. فيه يتحقق كل شىء، ويصدر الحكم على كل شىء⁽²⁾. ثم جاء القرن العشرين ليكمل المشروع المعرفى الغربى فى الظاهريات.

(1) انظر دراستنا: استراتيجية الاستعمار والتحرير، حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة 1998، ص 211-228.

(2) هى عبارة هيجل الشهيرة: Weltgeschichte ist Weltgericht

والظاهريات فى تأويل آخر نزعة إشراقية تطهيرية. فالقاعدة الأولى "الرد" أو "التوقف عن الحكم" $\epsilon\pi\omicron\chi\eta$ أو إخراج الواقع المادى خارج دائرة الانتباه هى إبعاد للعالم وزهد فيه حتى يظهر عالم الماهيات وينكشف فى النفس. فالحقيقة ككشف $\acute{\alpha}\lambda\epsilon\tau\epsilon\iota\alpha$ كما يقول تلميذه هيدجر مطبقاً منهج الأستاذ. والوجود إنارة. كما أن هوسرل فى أواخر حياته، فى المرحلة الثالثة من فلسفته منذ "التجربة والحكم" عاد إلى العالم تأكيداً على شعار الفينومينولوجيا، "العود إلى الأشياء ذاتها"، والبحث عنها فى التجارب السابقة على الحمل المنطقى. كما أن المخطوطات التى تركها والمصنفة تحت حرف k تعطى وجهة نظر أخلاقية دينية صوفية للعالم، ونظرة إيمانية مسيحية قلبية مما دفع عديد من الأنصار إلى تأسيس فينومينولوجيا الدين⁽¹⁾.

وظهرت دعوات عنصرية فى الغرب تدعى أن الغرب وحده هو القادر على التنظير، والبحث المعرفى الخالص دون أدنى اهتمام عملى مصلحى نفعى. البحث عن الحقيقة المجردة مثل النقطة فى الهندسة التى لا طول ولا عرض ولا عمق لها. وهى فى نفس الوقت أساس الهندسة.

جعل ماكس فيبر التنظير Rationalization خاصية فريدة فى الوعى الأوروبى بعد أن درس تاريخ الأديان واكتشف الطابع العملى لديانات الشرق. ومن ثم فالماركسية بنقدها النظرى نزعة غريبة على الفلسفة الغربية. والبحث عن الأنماط المثالية Ideal Types هو البحث فيما يتحكم فى العالم. النظر سلطة، والعمل ضعف. والحقيقة أن ماكس فيبر يريد السلطة أى يريد العمل عن طريق النظر كعمل غير مباشر وليس عن طريق العمل المباشر أى الممارسة الفعلية.

(1) انظر رسالتنا:

L'Exégèse de la Phénoménologie, L'état actuel de la méthode phénoménologique et son application au phénomène religieux, Paris 1966, Dar al-Fikr al-Arabi, Le Caire 1977, pp.430-458.

وسار في نفس التيار هوسرل مؤسس الفينومينولوجيا المعاصرة عندما جعل التنظير Theoretization صفة خاصة في الوعي الأوروبي، البحث عن الحقيقة المجردة، وبالنظر المجرد عن مثال أفلاطون والماهية الخالصة مع أن مثال أفلاطون هو الخير، وهي مقولة عملية. لذلك اعتبر أفلاطون مؤسس الفلسفة وليس سقراط لأنه شابته النزعة الأخلاقية. واعتبر سقراط أقرب إلى الشرق منه إلى الغرب. فالشرق أخلاقي عملي صوفي ديني في حين أن الغرب معرفي نظري عقلي "علماني".

وقد تزدهر الدراسات الصورية الخالصة في المنطق والرياضة في النظم الشمولية نظرا لصعوبة التعرض للواقع الاجتماعي والسياسي خوفا من الاضطهاد. فآثر العقل الاتجاه نحو العلوم الصورية الخالصة كما كان الحال في بولندا إبان الحكم الشيوعي. فالنظر هروب من العمل وتعويض عنه. كما ازدهرت الرياضيات في أواسط آسيا بعد أن توقفت الفتوحات وضعفت الخلافة، ولم يعد ينشغل الناس بهوموم الدنيا. ولم يعد أمامهم إلا أمور الآخرة، النظريات الخالصة في العلوم أو تمنى الفوز والنجاة في التصوف أو "الحكمة المتعالية" و"مشاهد الربوبية" كما هو الحال عند صدر الدين الشيرازي.

والآن غابت فلسفات العقل وفلسفات الفعل معاً ولم يعد الوعي الأوروبي يعطى شيئاً. فبعد تحطيم العقل وسيادة اللامعقول، ظهرت التفكيكية لتقضى على ما تبقى من وظيفة للعقل وفككته وقضت على التمرکز حول العقل Logocentricity وكل ما أبدعه العقل من قانون ونظام. وتأتى ما بعد الحداثة أيضاً لتقضى على كل شيء، العقل والفعل والبداية من الصفر بعد أن تنبأ نيتشه بعصر العدمية الشاملة.

ويبدأ الفعل من جديد خارج الوعي الأوروبي في حركات التحرر الوطني وفي الصحوة الإسلامية وفي حركات المقاومة لما تبقى من احتلال استيطاني في فلسطين وجنوب لبنان، بعد انتهاء النظام العنصري من جنوب أفريقيا الذي في نفس العام قسمت فيه فلسطين 1948، بعد تقسيم الهند في 1947 واحتلال كشمير وما زالت محتلة حتى الآن.

ربما انتهى العقل والفعل من الغرب، وبدأ الفعل فى الشرق قبل أن يزهو العقل تأكيداً على الكوجيتو العملى فى الشرق فى مقابل الكوجيتو النظرى فى الغرب. وإذا كان المشروع الغربى قد بدأ بالعقل والسيطرة فإن المشروع الشرقى قد بدأ بالفعل والتحرر. لذلك يشتد عليه الآن الحصار والغزو والتهديد والتهميش حتى تظل السيطرة للغرب باسم ثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات، وصراع الحضارات ونهاية التاريخ.

فهل يعى العرب فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟

2 - أولوية العمل على النظر :

هو اختيار رئيسى فى كل حضارة. وهو الاختيار وراء قيامها وانتشارها قبل أن تهزم وتتوقف، فيتحول الهم العملى إلى هم نظرى. هو الاختيار الذى يبنى الدول ويقيم العمران كما حدث فى عصر الفتوحات الإسلامية الأولى⁽¹⁾. لذلك تظهر أمور المعاد النظرية فى لحظات الضيق والعجز كما ظهرت فى تاريخ بنى إسرائيل أثناء الأسر البابلى، وفى المسيحية أثناء سيطرة اليهود والرومان فى فلسطين، وعند الصوفية عندما استحالت المقاومة الفعلية بعد استشهاد أئمة آل البيت وسيطرة آل عثمان. وفى لحظات الخلاص تعود هذه الأخويات، من الخيال إلى الواقع، ومن عالم التمنى إلى عالم الفعل، وتحرك الناس نحو الخلاص القريب كما هو الحال فى المهديّة والمشيانية ولدى فرقة الأنابابتست Anabaptism ولدى الحركات الألفية Millenarianism التى تعتقد بظهور المخلص كل ألف مرة والتى كان يتنسب إليها نيوتن.

وفى اللغة العربية يتشابه لفظا "علم" و "عمل". يتكونان من نفس الحروف ع، ل، م. ومعهما لفظ ثالث "عالم" أى الكون مع إضافة أ ممدودة بعد العين دلالة

(1) يُروى أن إبراهيم باشا وهو فى الشام أرسل لوالده محمد على كتاباً فى التاريخ وجده هناك كى يقرأه ويستفيد منه. فأرسل إليه محمد على قائلاً: أنت تقرأ التاريخ، أما أنا فأصنع التاريخ.

على الأفق والاتساع. وبتأويل من نوع ابن عربى أو هيدجر، العلم والعمل والعالم أبعاد ثلاثة لحقيقة واحدة: النظر، والعمل، وميدان التحقق.

وقد ورد لفظ العمل فى القرآن مئات المرات. ومن حيث الاشتقاق ذكر العمل فعلاً أكثر منه اسماً مما يدل على أن العمل فعل⁽¹⁾. والمخاطب الجمع أكثر الصيغ للدلالة على الخطاب⁽²⁾. وأكثر الأزمنة المضارع مما يدل على أن الفعل حقيقة مستمرة⁽³⁾. وفى الاسم، الجمع أكثر من المفرد مما يشير إلى العمل الجماعى⁽⁴⁾. والإضافة إلى الضمير، خاصة ضمير الجمع أكثر من غير المضاف. وكذلك الأمر فى اسم الفاعل⁽⁵⁾.

ومن حيث المضمون يدفع القرآن الكريم نحو العمل ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾. وقد ورد لفظ "العمل" فى القرآن مئات المرات ليفيد ارتباط الإيمان بالعمل الصالح ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾، وأن فوز الإنسان فى الآخرة بالعمل الصالح ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَى ﴾، وأن العمل الصالح له قيمته فى ذاته بصرف النظر عن الإيمان والكفر ﴿ لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾⁽⁶⁾. الاستحقاق قانون جزاء الأعمال ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾، والإنسان مسئول عنه ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. ويتم فى وقته المحدد كالصلاة ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ

(1) اسم (71)، اسم فاعل (13).

(2) الصيغ الفعلية: تعملون (83).

(3) المضارع: يعملون (56)، يعمل (14)، نعمل (6)، أعمل (4)، تعمل (2). الماضى:

عملوا (73)، عملت (5)، عملتم، علمته (1). الأمر: إعملوا (9)، إعمل (2).

(4) أعمالهم (27)، أعمالكم (9)، عمل (17)، عمله (5)، عملكم (4)، عملهم، أعمال (2)، عملى (1).

(5) عاملين (عاملين) (8)، عامل (عاملة) (5).

(6) ورد لفظ "عمل" ومشتقاته (359) مرة منها ارتباط الإيمان بالعمل الصالح (73).

فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ ﴿١﴾، والعمل عمل اليد ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾. وهو عمل فى الأرض ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. وعمل فى البحر ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾. والقول والإيمان والعمل شىء واحد ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، والعمل فردى ﴿وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾؛ لأن المسئولية فردية، والجزاء فردى، والاستحقاق فردى. فالعمل عمل الفرد. الدعوة إلى العمل صريحة وواضحة فى القرآن ﴿قُلْ يَتَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾، ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾، ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾.

ويظهر فى القرآن لفظ "فعل". العمل أقرب إلى العمل فى الخارج والتأثير فى العالم، فى حين أن الفعل أقرب إلى العمل الذاتى، التعبير عن جوهر الذات ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا بِالْمَعْرُوفِ﴾. وهو ما يوجد أيضاً فى اللغات الأجنبية فى التمييز بين العمل Action، والفعل Act. وترد معظم استعمالات لفظ "فعل" فى القرآن بمعنى سلبى لتطهير الذات⁽¹⁾. وهى أفعال الظالمين والسفهاء والمبطلين والكافرين والجاهلين والضالين والمجرمين والخاسرين والصاعرين والنادمين. فى حين أن الأفعال الإيجابية قليلة، أفعال المتقين والصابرين⁽²⁾. وهى أيضاً أفعال فردية، أصحابها مسئولون عنها. والله يفعل أيضاً بعقابهم كما فعل بعباد وثمود وأصحاب الفيل. وهى أفعال المنكر والفحش والبغضاء والكراهية والضلال والكفر والإفتراء والفساد فى الأرض والفتنة والظلم والقتل والجهل والإثم والخسران والبؤس.

والفعل أيضاً مرتبط بالقول ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا

(1) ورد لفظ فعل (108).

(2) الأفعال السلبية (99)، الأفعال الإيجابية (9).

تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ . وفى هذا المعنى نقد الله سلوك الشعراء ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٤﴾ ، وهو مرتبط أيضاً بالإرادة. لذلك كان الله ﴿فَعَالًا لِّمَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ، وكان الإنسان ألتشبهه بالله كذلك ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزُّكُوةِ فَعِلُونَ﴾ .

كما ورد لفظ "العمل" فى الحديث. وفى معظم الاستعمالات مرتبط بالعلم النافع وضرورة تطابق علم العالم مع أفعاله وأقواله، "تعلموا، تعلموا، فإذا علمتم فاعلموا". فالعلم نهاية العمل، العلم بداية والعمل نهاية، "لا تكون بالعلم عاملاً حتى تكون به عالماً"⁽¹⁾. العلم مقدمة والعمل نتيجة. ولا يوجد علم نظرى إلى ما لا نهاية "فإذا عرفتم منه فاعملوا". والعلم قراءة القرآن، وقراءة القرآن تؤدى إلى العمل به، "من قرأ القرآن وعمل بما فيه"، "المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به". وهو عمل فى الأرض لتعميرها وفى الدنيا تحقيقاً لرسالة الإنسان واستخلافه فى الأرض. هو العمل اليدوى المنتج "خير الكسب كسب يد". هو العمل المأجور وليس المستغل "أعطوا العامل أجره قبل أن يجف عرقه". ولا ينقص من أجره شيئاً قيمة عمله "لا ينقص من أجر العامل". هو العمل فى الزمان، فى الوقت المحدد، فى الساعة واليوم والفترة والعمر. لذلك كانت العبادة فى مواقيت، الصلاة والصيام والزكاة والحج. وكان الوحي أيضاً فى مواقيت طبقاً لمراحل التاريخ، وأكملها المرحلة الأخيرة التى اكتملت فيها النبوة. وأفضل الفعل أدومه وإن قل وهو العمل الضرورى وفى نفس الوقت الاختيارى الذى يقوم على التطوع والسبق والمنافسة فى الخير وأفضل الأعمال على ظهر الفرس: الجهاد فى سبيل الله. هو العمل طبقاً للقدرة والطاقة "اعملوا فكل ميسر لما خلق له". وهو ضد الإتكال. ولئن جمع حاطب ليل وباع بالنهار خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه. ولم يشأ

(1) ورد لفظ "عمل" فى الحديث حوالى (280) مرة. أكثرها مع العمل وأجر العمل، وجزاء العمل، والكسب والقدرة.

الرسول البشارة بالجنة حتى لا يتكل الناس، "إعملوا ولا تتكلموا". والعمل سنة، إتباع وإبداع، تقليد وتجديد، تواصل وانقطاع فى التاريخ. وهو عمل يُجازى الإنسان عليه يوم القيامة طبقاً لنوعه صلاحاً أم فساداً، حسناً أم سيئاً، طبقاً للنية الصادقة ولوجه الله أم طمعاً فى مدح الناس. ومن هم بحسنة ولم يعملها كتبت له، ومن هم بسيئة ولم يعملها غفرت له "العمل بالنية" و "إنما الأعمال بالنيات".

والعلوم الإسلامية العقلية النقلية أربعة: إثنان عمليان وإثنان نظريان. العمليان علم أصول الفقه وعلوم التصوف. والنظريان علم أصول الدين وعلوم الحكمة.

فى علم أصول الفقه غاية الوعى العمل، تحويل الوعى إلى نظام للعالم. الفعل صيغة أمرية، إيجاباً أم سلباً. والمقاصد للإمتثال والتكليف. والأحكام للوجوب أو للتحريم ضرورة (الواجب والمحرم) أو اختيار (الندب والكراهة) أو طبيعة (الإباحة). ولا يجوز تكليف ما لا يطاق مع التخيير بين العزيمة والرخصة طبقاً للقدرة. وكل مسألة لا ينتج عنها أثر عملى كما يقول الشاطبى فى "الموافقات" عارية عن العلم. وتطابق عمل المفتى مع قوله شرط للإفتاء. وتحقيق المصالح العامة هو الهدف الرئيسى من العلم بصرف النظر عن طرق الاستدلال.

والتصوف نزعة عملية تقوم على الرياضة والمجاهدة. الشريعة قبل الطريقة، والطريقة قبل الحقيقة. والمقامات جهد مبدول وعمل محصول قبل ورود الأحوال من عين الجود. المقامات مكاسب والأحوال مواهب. هو تصفية للقلب، وجلاء للمرأة قبل أن تنعكس عليها صور المعارف وحقائق العلوم. لا يعرف الله إلا ببطن جائع وبدن عار. التصوف علم وعمل، نظرية وتجربة. هناك تصوف نظرى وتصوف عملى، والعملى شرط النظرى.

وفى علم أصول الدين جعل الخوارج العمل جوهر الإيمان. ومن لا عمل له لا إيمان له. ومرتكب الكبيرة الكافر لأن عمله خرج عن إيمانه، ولا توسط بين الإثنين. وحكم الكافر هو الإقصاء من جماعة المسلمين بل وجواز قتله إن لم

يستتب. والعمل عند المعتزلة جزء مكمل للإيمان. الإيمان بلا عمل نفاق أو معصية ينافي الإخلاص والصدق. فالتوسط هنا فى صالح العمل. وهو أساس قانون الاستحقاق فى المعاد ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٢٦) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٢٧). وفى الأصول الخمسة عند المعتزلة العدل جوهر التوحيد. الجوهر بلا عدل ظلم. والعدل بلا توحيد قد يودى إلى نسبية العدل. ومن مظاهر العدل الحرية والعقل. يثبت وجود الله بالتوحيد، ويثبت وجود الإنسان بالحرية. "أنا حرفاً إننا موجود". فالكوجيتو الإسلامى عملياً وليس نظرياً. الإنسان يتفرد عن الله بخلق الأفعال. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساس علاقة الحاكم بالمحكوم، مثل الدين النصيحة. فى هذه الحالة قول الحق فعل، فالساكت عن الحق شيطان أخرس. وأعظم شهادة قوله حق فى وجه إمام ظالم. بل إن من صفات الله القدرة والإرادة. ومن صفات الإنسان كى يكون حراً قادراً على الفعل الإستطاعة قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل، قبل الفعل استعداداً، ومع الفعل إنجازاً، وبعد الفعل أثراً وامتداداً. ثم أتت المسائل النظرية بعد ذلك، الذات والصفات والأسماء والأفعال أو النبوة والمعاد. فعلم أصول الدين عملى النشأة وإن كان نظرى النهاية.

والحكمة قسمان: حكمة نظرية، المنطق والطبيعات والإلهيات، وحكمة عملية: النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة. الأخلاق علم عملى. لذلك ارتبطت بالتربية كما هو الحال عند مسكويه فى "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق". والاجتماع وصف لأنواع المدن وتقسيم العمل والتركيب الطبقي كما هو الحال عند الفارابى. وإذا كان اليونان قد أضافوا "تدبير المنزل" أى الاقتصاد باعتباره علماً عملياً فإن الحكماء قد أضافوا السياسة أحياناً مرتبطة بالاجتماع وأحياناً بالتاريخ باعتباره تراكم سياسى وميدان تتحقق فيه قوانين السياسة⁽¹⁾.

ومن العلوم النقلية الخمسة: القرآن والحديث والتفسير والسيرة والفقهاء،

(1) انظر دراستنا: من النقل إلى الإبداع، المجلد الثالث: الإبداع، ج3 الحكمة العملية، دار قباء، القاهرة 2002.

السيرة والفقہ من العلوم العملية الخالصة. فالسيرة نموذج للاتباع وقدوة للاحتذاء. والفقہ قسمان عبادات ومعاملات، وكلاهما سلوك. العبادات سلوك رأسى مع الله، والمعاملات سلوك أفقى مع الإنسان وفى المجتمع.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية وسطاً بين الشرق والغرب فقد استطاعت الحضارة الشرقية الإفلات من هذا الإشكال بطابعها العملى. الشنتوية عبادة الإمبراطور فى اليابان. والكونفوشوسية تنظيم علاقات الفرد بالآخرين فى الأسرة والمجتمع فى الصين. والبوذية قدرة على السيطرة على الأهواء والانفعالات. وديانات فارس المانوية والزرادشتية نزعات أخلاقية عملية من أجل انتصار الخير على الشر، والنور على الظلمة. ولا توجد نظرية مسبقة للفن أو الصناعة فى اليابان. هناك ممارسات عملية واتحاد بالطبيعة، وإحساس بالجمال. الإبداع عملية آنية وليس تطبيقاً لنظرية مسبقة فى الجمال. لذلك غابت الأخريات فى الديانات الشرقية. ولا يوجد فيها عالم لا مرئى يُضحى فى سبيله بالعالم المرئى. لا يوجد إلا العالم المرئى، والإنسان جزء منه ويعيش فيه. يتحد معه ويشعر به. فالطبيعة خير معلم.

وإذا كانت الحضارة الغربية قديمة ووسيلة وحديثة، ويونانية ومسيحية وحديثة معاصرة فقد بدأت الحضارة اليونانية السابقة على سقراط بنزعة عملية تحت أثر الشرق القديم فى النحلة الأورفية التى ارتبطت بالأساطير وبمقاومة الموت. والأساطير اليونانية السابقة على الفلسفة وأحد مصادرها كلها صراعات بين الآلهة والبشر أو بين الآلهة والآلهة أو بين البشر والبشر. وأوليس رمزها. فالأسطورة Mythos سابقة على الفلسفة Logos. والأسطورة صياغة خيالية لأفعال الأبطال وصراعات الشعوب.

ومنذ أن وعى سقراط أن "العلم فضيلة والجهل رذيلة" بدأت أولوية العمل على النظر. فالعلم ليس بحثاً نظرياً مجرداً بل هو سلوك عملى. بل إن المعرفة النظرية عن ماهيات الأشياء إنما تأتى عن طريق الحوار القائم على التهكم والتوليد، والحديث مع الناس فى الأسواق، والمشاركة فى تجارب

الحياة اليومية، بالرغم من نقده للسوفسطائيين الذين لا يريدون البحث عن المعانى المجردة، ويكتفون بإثبات الحركة بالتحرك بالفعل دون أدلة نظرية أو بحث عن معانيها كما يريد سقراط.

والفلسفة عند أفلاطون هي تعلم الموت أى القدرة على الزهد فى الدنيا من أجل معرفة الحقيقة، والتحول من الدنيا إلى الآخرة طبقاً لأسطورة الكهف المعروفة. فالأخلاق شرط المعرفة، والعمل أساس النظر. بل إن أفلاطون فيلسوف عملى تربوى فى "الجمهورية"، يريد تأسيس المدينة الفاضلة، والانتقال من النظر إلى العمل، ومن التأمل إلى الممارسة، ومن الكهف إلى الدولة. كان فيلسوف ورجل دولة، صاحب نظرية ومطبق لها.

و"الإرادة الخيرة" عند أرسطو، ثم بعد ذلك عند كانط توجه عملى. فهى إرادة طيبة، لأن الطبيعة خيرة كما عرض روسو فيما بعد. وقد أثرت "الأخلاق إلى نيقوماخوس" فى البشرية قدر تأثير المنطق.

وبعد نسق أرسطو، هذا الصرح الشامخ للمنطق والطبيعة، وما بعد الطبيعة تحولت الفلسفة اليونانية بعده إلى مدارس خلقية عملية كالرواقية والإبيقورية، تجعل الفلسفة أسلوب حياة حتى لو كانت على طرفى نقيض، الزهد فى الدنيا أو التكالب عليها، إثارة الآخرة على الدنيا أو إثارة الدنيا على الآخرة. فالتطور الطبيعى للفكر من النظر إلى العمل، ومن التأمل إلى الممارسة.

وفى العصور الوسطى قامت العقائد المسيحية كلها على القنوط والخلاص، سقوط آدم والخلاص بالمسيح. خرج آدم من الجنة إلى الأرض بفعل الغواية ولضعف الإرادة. وحمل الخطيئة يتوارثها أبناؤه جيلاً وراء جيل. لذلك أرسل الله المسيح ليخلصه من غواية الشيطان وما ترتب عليها من سقوط. فالمسائل النظرية عن طبيعة السيد المسيح إنما أنت بعد المسائل العملية. الخلاص بالسيد المسيح الذى أتى فداء للبشر. وقد ظهر فى نشأة المسيحية تياران فى الصلة بين النظر والعمل تيار يعقوب الحوارى كاتب رسالتين فى العهد الجديد فى آية مشهورة له "ليس المهم أن تقول إلهى إلهى

ولكن المهم من يطبق كلامه فى العمل". وتيار بولس الذى تحول إلى المسيحية بعد صعود المسيح إلى السماء وكان من كبار مضطهدى أنصاره وظهور المسيح له وهو فى طريقه إلى دمشق. وهو تيار لاهوتى فقهى نظرى نظراً لأن بولس كان حبراً يهودياً من مدرسة الجميل المشهورة بالتأويل. حول بولس كل خصائص التوراة إلى صفات المسيح، الحق، الألوهية، الخلاص. وحول المسيحية الأخلاقية العملية عند متى ومرقص إلى مسيحية لاهوتية نظرية مثل مسيحية يوحنا. فبولس هو المسئول عن تحول المسيحية الأخلاقية العملية إلى مسيحية لاهوتية نظرية. وهو ما لاحظته ابن حزم أيضاً فى "الفصل" ثم رينان بعد ذلك فى "مصادر المسيحية" خاصة الجزء عن "بولس".

وقامت العقائد اليهودية على نفس الأساس العملى، أن الله اختار هذا الشعب ووعد به هذه الأرض والمدينة والمعبد والهيكل، وأيده بالنصر والغنم. وهو عهد إلهى مطلق، من طرف واحد، ودون مقابل من إيمان أو إخلاص أو تقوى أو طاعة للشريعة. يكفى إيمان البعض كى يتم خلاص المجموع. لذلك نقض الله عهده معهم كما نقضوا عهدهم معه. وجعل العهد لكل البشر عهداً فردياً مشروطاً بالطاعة، عهداً أخلاقياً وليس عهداً مادياً. اليهودية ليس بها عقائد نظرية. والعهد اختيار عملى. جوهرها الشريعة. وهو تطبيق عملى فى الفرد والجماعة.

وفى العصور الحديثة بالرغم مما يبدو عليها فى بداياتها عند ديكرت وبيكون من البحث المعرفى المنهجى إلا أنها بدأت أيضاً بالعمل. فعند ديكرت الإرادة أوسع نطاقاً من الذهن كما يعرض فى التأمل الرابع فى "التأملات فى الفلسفة الأولى". لذلك يخطئ الإنسان لأن العقل لا يستطيع أن يسيطر على كل مظاهر الحياة الإنسانية. يطبق العقل فى الرياضيات وفى العلوم الطبيعية. أما فى الحياة الإنسانية فالإنسان فى حاجة إلى "أخلاق مؤقتة" تسيّر أمور حياته طبقاً للعادات والأعراف والتقاليد الموروثة والحس المشترك والرأى العام. ثم رفض تلميذه اسبينوزا الأخلاق المؤقتة، الدين والسياسة. وطبق فيهما روح المنهج. فرفض الثيوقراطية، ونادى

بالديموقراطية⁽¹⁾. والمعرفة عند بيكون تبدأ أيضاً بالتخلص من الأوهام الأربعة، أوهام الكهف وأوهام المسرح وأوهام السوق وأوهام القبيلة حتى يمكن تأسيس المعرفة التجريبية الصحيحة. وهو جهد عملي مثل الشك عند ديكارت الضروري للوصول إلى اليقين.

وظهرت أولوية العمل على النظر في الفلسفة النقدية عند كانط بالرغم من أن "نقد العقل النظري" يأتي من حيث الترتيب قبل "نقد العقل العملي". فالمعرفة لا تدرك إلا الظاهر، أما الباطن فلا يعرف إلا بالأخلاق. لذلك صرح في مقدمة الطبعة الثانية في "نقد العقل النظري": "كان لزاماً على هدم المعرفة لإفساح المجال للإيمان". والإيمان تقوى باطنية، وعمل صالح، وإرادة خيرة، وأداء للواجب. ونقد كل الأدلة القبليّة والبعدية على وجود الله وأنها لا تثبت شيئاً سواء كانت استنباطية أو استقرائية، عقلية أو طبيعية، وأن الدليل الوحيد على وجود الله، هو القانون الخلقى أو الغائية في النفس أو الجلال في الطبيعة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ﴾. وفي رسائله بيّن أن هناك عديداً من المسائل النظرية ليس لها إلا حل عملي.

وقد أدرك الفلاسفة بعد كانط روح المذهب الكانطي وأعطوا الأولوية للعقل العملي على العقل النظري، وللحياة على الفكر، وللإرادة على العقل. جوهر العقل النظري عند فشته المقاومة، "الأنا تضع نفسها حين تقاوم". وعند هيجل الجدل، والجدل ليس فقط في العقل بل في التاريخ. وعند شلنج الوحدة أو الهوية، والهوية ليست مبدأً صورياً بل هو تطابق الروح والطبيعة. وعند شوبنهاور الإرادة، والإرادة ليست مجرد فعل بل هي إرادة الحياة أو الموت. وأحدثت صورية العقل عند كانط رد فعل في "العاصفة والاندفاع" عند الرومانسيين. وسار في نفس الطريق الكانطيون الجدد مثل هرمان كوهين بتطبيق الفلسفة النقدية في عالم الإرادة والعواطف.

(1) اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1971.

ثم أدرك جوته جوهر القضية عندما غير أول آية في إنجيل يوحنا "في البدء كانت الكلمة" إلى "في البدء كان الفعل" ليعبر عن روح عصره بأكمله، أولوية الفعل على التأمل، والإرادة على العقل، روح فاوست والعصر الحديث. فالإنسان شيطان. يتميز بروح التمرد والعصيان.

ثم فجر ماركس القضية بعبارته الشهيرة في "البيان الشيوعي"، "ليس المهم فهم العالم بل تغييره". وأصبح الفهم من سمات العقل البرجوازي الذي يريد الإبقاء على الوضع القائم. الفهم مثل الدين والفلسفة النظرية تعويض عن العجز عن العمل في الدنيا، فتتسرب الطاقة إلى أعلى بدلاً من أن تتحقق إلى الأمام. البروليتاريا هي الوريث الوحيد للأفكار. ووحدة العمال "ياعمال العالم اتحدوا" تسبق وحدة المعرفة في "جدل الطبيعة".

وبدأت الفلسفة المعاصرة بالتحول من الماهية إلى الوجود، ومن النظر إلى العمل، ومن الفكر إلى الواقع، ومن العقل إلى الفعل. بل إنه لا يوجد فيلسوف معاصر لا يبدأ بتحطيم العقل كما يقول لوكاتش والبداية بنقيضه. أعلى نيتشه من شأن ديونيزيوس إله الخمر والحياة على أبوللو، إله العقل والحكمة. ودعا إلى إرادة القوة وخلق السوبرمان. وجعل بلوندل العقل هو أحد مظاهر التجلي الإلهي في الإنسان وأحد تحقيقات الفكر في العالم. واعتبر برجسون الفكر النظري المجرد الذي وراء المذاهب الألمانية نقص في الإرادة، وأن المقولات في العقل وقوالبه كطفل يلعب بظلال الأشياء بدلاً من أن يلعب بالأشياء ذاتها، وأنها أشبه بشيك بلا رصيد. وأدرك ماكس شيلر أن عالم المثل ليس معطى جاهزاً بل هو عملية تحويل الواقع إلى مثال Ideation ، تتطلب جهداً. كما أثبت مين دي بيران وجود الأشياء عن طريق الجهد والمقاومة.

ثم ظهرت الفلسفات البرجماتية سواء تلك التي تعتمد على المثالية مثل بيرس أو التي تعتمد على المنفعة مثل جيمس أو التي تقوم على الذرائع مثل ديوى لتؤكد أهمية الفعل، وأن شيئاً واحداً يتم فعله خير من عشرة أشياء يتم التفكير فيها. وتجعل الشخصية الفعل أحد أبعاد الوجود الإنساني.

وعند ماكس شيلر فعل التضحية وقيمة الشخص أعلى قيمتين فى تراتب الفضائل. أما فلسفات الوجود فقد اتفقت كلها على البداية بالوجود الإنسانى، بالأنا موجود وليس بالأنا أفكر كما بين جان بول سارتر فى "تعالى الأنا موجود" ثم فى الفعل الجماعى التاريخى فى "نقد العقل الجدلى".

3 - المنزل يحترق، فمن يطفىء النار؟

وأولوية العمل على النظر أحد متطلبات الواقع العربى المعاصر. المنزل يحترق فمن يطفىء النار؟ والوجود مهدد فمن الذى يصارع من أجل البقاء؟ والمشروع الصهيونى يتحقق يوماً وراء يوم من احتلال أكثر من نصف فلسطين فى 1948 إلى ابتلاع النصف الآخر فى 1967، ومن احتلال جنوب لبنان إلى احتلال الجولان فى سوريا، ومن الهجرات الروسية إلى تأسيس إسرائيل الكبرى. فمن الذى يحمى الدار ويذب عن الديار؟ وما هو دور الفيلسوف والمفكر والمثقف؟ أيقب فى فلسفته يعلمها صنعة لجيل قادم من الحرفيين؟ أينظر بفكره الحريق والهدم وتجريف الأراضى واغتيال الأطفال والنساء والشيوخ وتصفية المقاتلين؟ أيبقى فى ثقافته، فالثقافة شىء والعالم شىء آخر، وما شأن عالم الأذهان بعالم الأعيان؟ لذلك قال الغزالى من قبل: لو أنى أشعر بثعبان تحت الجبة فهل أسأل: ما طولله؟ ما عرضه؟ ما شكله؟ ما لونه؟ سام أم غير سام؟ أم أنى أقذفه أولاً خارج الجبة ثم بعد ذلك أنظر إليه وأصفه؟ هنا يسبق العمل النظر فى مواقف الخطر، وتهديد الوجود والبقاء.

والآن يشعر الجميع بمدى الامتهان عندما نواجه الاحتلال بالبيان، والاجتياح بمؤتمر القمة، والعدوان بالشجب والإدانة. فأين الفعل فى مواجهة الفعل، والألم فى مواجهة الألم ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾؟ يسهل الكلام، ويصعب الفعل. ويعلو الصوت إذا ما صمت الفعل. هو نفاق ذاتى، وتعويض نفسى، وإبراء للذمة، وتخفيف من عذاب الضمير. لذلك أتهمنا فى ثقافتنا وتراثنا. وقيل إن العرب ظاهرة صوتية، وأن

بضاعتهم بضاعة كلام. وفي المثل "عصاية تجمعهم وعصاية تفرقهم". في حين أن الشعر العربي خيال وكرامة، عزة ونخوة، سمو ورفعة. وفي تاريخ العرب "وامعتصماه" صراخ امرأة في الشام ينتهك الروم حرمتها لخليفة بغداد. وفي الشعر العربي، المهلهل ابن أبي ربيعة بعد مقتل أخيه كليب "اليوم خمر، وغداً أمر". وهو طريق ما زال مفتوحاً للحكام العرب إذا ما أراد أحد منهم نصر إخوته في فلسطين.

ونظراً لغياب الفعل، الكل يريد أن يضع الكرة في ملعب الآخر، ويعيب عليه سكونه وصمته. يقول السوريون للمصريين والأردنيين: اقطعوا العلاقة مع إسرائيل واسحبوا السفير. ويقول المصريون والأردنيون للسوريين: افتحوا جبهة الجولان فهي ليست أقل من الجنوب اللبناني. ويقول اليمنيون للمصريين: لما لا تفتحوا جبهة في سيناء للتخفيف عن الفلسطينيين؟ ويقول المصريون لليمنيين: احضروا جيوشكم إلى سيناء، وتعالوا لتحرير فلسطين. ويقول العرب للأوروبيين: لماذا لا تناصرون الحق الفلسطيني ضد العدوان الصهيوني، وتقطعون عنهم المعونات، وتوقفون التجارة، ولا تجعلونها من الدول الأكثر رعاية؟ ويقول الأوروبيون للعرب: ولماذا لا تقومون بواجبكم تجاه إخوانكم في فلسطين؟ لماذا لا تمدونهم بالمال والسلاح والدواء والغذاء؟ ولما لا تقاطعون إسرائيل تجارياً وتمنعون قدوم السياح إليكم وتوقفون خطوط الطيران؟ ويطالب العرب الأمريكيين بأخذ موقف الحُكم العادل، والشاهد المنصف، والضغط على إسرائيل للإنسحاب من الأراضي المحتلة والعودة إلى حدود الرابع من حزيران 1967. وتقول أمريكا للعرب: ولماذا لا توقفون العنف والعمليات الانتحارية ضد إسرائيل، وتوقفون دعايتكم العدوانية ضد شعب إسرائيل؟ وتطالب روسيا أمريكا بالتدخل لصالح العدل في المنطقة. وتطالب أمريكا روسيا بالتعقل دفاعاً عن شعب إسرائيل من الإرهاب العربي. وفي غياب أي فعل ذاتي من أي طرف بداية بالطرف العربي يتم

اجتياح الأراضي الفلسطينية وتدمير المدن والقري، وتسوية المخيمات بالأرض. والكل يستصرخ أخيه بل عدوه. ولم يبق أمام العرب إلا استجداء العدو الأكبر، الخصم والحكم.

ونظراً لما نحن فيه من مآسى وأحزان، وإحساس بالعجز والامتهان، وشعور بالضعف والهوان فإن الحاجة إلى الفعل تبدو ملحّة في وقت يتساءل فيه الجميع: أين العرب؟ ولما تحرك الشارع العربي تنفس الجميع الصعداء. وشعر كل عاجز أنه تخلى عن عجزه بفعل الآخرين. وأصبح الشارع العربي هو المخلص من كل ذنوب أنظمة الحكم وأيديولوجيات المنظرين.

وبحثاً عن الفعل في ميدان العجز بدأ المنظرون في تحية الشعب الفلسطيني لأنه أخذ قضيته بيده، وأنه يحارب لأول مرة لاسترداد أرضه. فقد حارب العرب بدلاً عنه في 1948 و 1956 و 1967. ولحق بثوراته المستمرة قبل النكبة، ثورة عز الدين القسام وما سبقتها من ثورات. فالإنتفاضتان الأولى والثانية من صنعه. أعطته الأولى السلطة الوطنية الفلسطينية. وتعطيه الثانية الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

ولأول مرة تختفى الحروب النظامية بين جيشين، الجيوش العربية متفرقة أو مجمعة وبين جيش الدفاع الإسرائيلي، ويحارب شعب جيشاً. ونقف مقاومة شعبية أمام أعتى الجيوش وأقواها عدة وعتادا. ولأول مرة تفوق خسائر العدو خسائره في حروب الجيوش النظامية. وتأتى العمليات الاستشهادية في المقدمة، التوحد بين الفعل والوجود. شباب حريصون على الموت قدر حرص العدو على الحياة. فالاستشهاد الفلسطيني قمة الفعل في وسط "التخاذل العربي" قمة العجز.

وتُحاصر الأنظمة العربية بين المطرقة والسندان، المطرقة الأمريكية بالوعد والوعيد، وقطع المعونات، وإخراج ملفات حقوق الإنسان والفساد، والسندان غضب الشارع العربي وثورته. وتراهن الأنظمة على الولايات المتحدة

الأمريكية ضد الشارع العربى. وهو نفس برهان برفيز مشرف، حاكم باكستان الذى آثر أن يخسر الشارع ويكسب ود الولايات المتحدة لضرب أفغانستان، والقفز فوق آسيا، وإقامة القواعد فى قازقستان، وتهديد الصين وماليزيا وروسيا، والوقوف أمام الاقتصاد اليابانى والكورى، والاستيلاء على السوق الآسيوى لمنتجات هونج كونج وتايوان وسنغافورة، والوقوف على حافة نبط بحر قزوين، وخوفاً من حصار باكستان وقدرتها النووية بين الهند شرقاً وإسرائيل غرباً. قد يكون الرهان على الولايات المتحدة كسباً للنظام على الأمد القصير، ولكنه خسارة له على الأمد الطويل، إذا ما تحولت حركة الشارع إلى ثورة شعبية بمساندة بعض عناصر وطنية فى القوات المسلحة.

والآن، ما دور المثقف؟ يشعر البعض بأن المدخل الأيديولوجى للواقع العربى المعاصر قد تجاوزه الاجتياح الصهيونى لما تبقى من فلسطين. فقد تم توحيد المقاومة فى اللجنة العليا للمقاومة الفلسطينية. ولم يعد تعدد الأطر النظرية بين قوميين وإسلاميين وليبراليين وماركسيين بذى دلالة. ومنذ معركة الكرامة فى 1967 حتى انتفاضة الاستقلال فى سبتمبر 2000 يصدق علينا ما أنشده نزار:

الفدائى وحده يكتب الشعر وكل الذى كتبنا هراء

وماذا يعنى النظر عن العمل؟ وفيما الخلاف الأيديولوجى بين فرقاء النضال والخطر على الجميع، وأفعال المقاومة تتجاوز الاختيارات الأيديولوجية؟ وبدلاً من الحروب المعلنة وغير المعلنة بين المثقفين، والتخوين والتكفير المتبادلين يقوم الشهيد بالتوحيد بين الفكر والواقع، بين الحياة والخلود، بين السماء والأرض. الشهيد هو فعل الشهادة وليس منطلقه النظرى الإسلامى أو القومى أو الماركسى أو الوطنى الليبرالى. الفعل يوحد النظريات، والنظريات أفعال وهمية.

إن المتمرس حول البحث النظرى، والتخندق فى التحليل الإيستمولوجى، والتستر بالغطاء المعرفى إنما هو نقص فى الالتزام، والأخذ بالأسهل والأحوط. فالتحليل المعرفى يتم فى المكتبات وعلى المكاتب فى حين أن النضال الوطنى يكون فى الطرقات ومع الناس. الإيستمولوجيا تنتشر فى

دور النشر، وتؤدي إلى الجوائز العلمية في الخليج. في حين أن الفعل يؤدي إلى السجون والمعتقلات، والاعتقالات والتصفيات. وهو نفس مصير الفقهاء القدماء. فريق أخذ الصرة والحلة والجاه والمنصب والصدارة والرياسة، فقهاء السلطان، وفريق سجن وعُذب وصُلب وذبح، فقهاء الأمة والناس.

بل إن البحث العلمي والتحليل المعرفي نفسه يجف ويموت دون الممارسة الفعلية. فالتجربة الاجتماعية للفيلسوف مثل المختبر والمعمل للعالم. لذلك يسمون فريق البحث العلمي في الجزائر "المخبر" نقلاً عن الفرنسيين Laboratoire، مخبر علم الاجتماع، مخبر الفلسفة. وقد أكد معظم الفلاسفة وليس التجريبيين وحدهم على أهمية الخبرة بصرف النظر عن مستواها ومدى اتساعها، بين الخبرة الحسية أو الخبرة الحياتية، الخبرة الفردية والخبرة الجماعية. ويتبادل اللفظان الخبرة والتجربة، الخبرة البشرية والتجربة العلمية وأحياناً يتميزان. وكثيراً ما يسأل الأساتذة الطلاب أين الباب الأول في رسائلهم عن حياة الفيلسوف وعصره والظروف الاجتماعية والسياسية التي نشأ فيها؟ فالفيلسوف ابن عصره. وفي نفس الوقت يحلو للبعض منهم التشدد بمصطلح "المتقف العضوي" لجرامشي، معتبرين أنفسهم نموذجاً حتى يلحق بثقافة العصر.

إن الفلسفة رسالة وليست مهنة، قضية وليست حرفة⁽¹⁾. وأستاذ الفلسفة هو الأمين عليها. صحيح أن مهمته هي التعليم ولكن ليس الصنعة بل ممارسة أفعال الفكر وتحليل الواقع، لا فرق بين المدرج والشارع، بين عالم الأذهان وعالم الأعيان. ليس من المعقول أن يعطى درس في حقوق الإنسان في الأروقة وتنتهك حقوق الإنسان في المجتمع دون ربط بين هذا وذاك، ودون قياس الفارق بين النظرية والواقع، بين ما ينبغي أن يكون وما هو كائن. ليس من المعقول أن يعطى درس في منطق أرسطو وأشكال القضايا، وضروب القياس المنتج وغير المنتج، والشارع العربي ينتفض، والأراضي تُحتل، والشهداء يتساقطون، والطالب موزع بين عقله في الجامعة، وقلبه في الشارع. إنه معلم الصنعة وليس شاهد

(1) انظر دراستنا: الفلسفة رسالة وليست مهنة، ندوة القيم والأعراف الجامعية، جامعة القاهرة، يناير 2000.

العصر الذى قد يكون شهيداً فيه. فى هذه الحالة يكون العلم تعويضاً عن الفعل، والصنعة غطاءً لغياب الرسالة، والتخصص الدقيق بديلاً عن العمل العام، وإيثار الأسهل على الأصعب. والجنة محفوفة بالمخاطر.

إن الأستاذ يحمل هموم الفكر والوطن على حد سواء، يقوم بالعلم وبالمواطنة دون تمييز حتى يؤثر فى الطالب، فيكون الطالب معه بالعقل والقلب، بدلاً من أن يكون عقله داخل المدرج وقلبه فى الشارع والطريق، وحتى يحترم الطالب الأستاذ، ويعلم أنه ليس موظفاً فى الجامعة بل صاحب موقف، وحتى لا يعتبر الأستاذ الطالب مشاغباً سياسياً يبلغ عنه لسلطات الأمن، يعكر عليه صفو العلم، ويمنع الطلاب من التحصيل.

إننا ليس الجيل الذى سيخرج منه الفلاسفة. فمارلنا جيل عصر النهضة الأول بعد أن كبا بعد مائتى عام ليعود فجر نهضة عربية جديد. ما زال الواقع لدينا مغطى بالأنساق المعرفية والقيمية القديمة. وما زالت الأسئلة الثلاثة التى جعلها كانط شرط التفلسف: ماذا يجب علىّ أن أعرف؟ ماذا يجب علىّ أن أفعل؟ ماذا يجب علىّ أن أأمل؟ ما زالت إجاباتها القديمة مطروحة. ومن ثم فلا سؤال. أعرف عن طريق الوحي، وقيمي من أحكام الشريعة، وأملى فى الفوز فى الآخرة، نيل النعيم وتجنب العذاب. والأسئلة الكبرى فى كل فلسفة من أين أتى؟ ومن أين أتى العالم؟ وإلى أين أنتهى؟ الإجابة عنها معروفة. الله موجود، والعالم مخلوق، والنفس خالدة، تنتظر الثواب والعقاب طبقاً للأعمال. فما دامت الإجابة موجودة فلا سؤال. وما دام لا سؤال فلا تفلسف. فأى سؤال متنطع: هل لدينا فلاسفة؟ سؤال خارج عن سياقه التاريخي. فالفلسفة تبدأ بالسؤال. ويوضع السؤال عندما تغيب الإجابة. والإجابات عندنا جاهزة تعطينا ونأما معرفيا بيننا وبين الواقع.

لقد نشأت الفلسفة فى الغرب فى بدايات العصور الحديثة بعد أن تكسر الغطاء النظرى بين القديم والجديد، وثبت أن أنساق أرسطو وبطليموس والكنيسة لا تتفق مع العقل والطبيعة والإنسان والمجتمع. فبدا الواقع عارياً من أى غطاء نظرى. وبدأت التساؤلات والإجابات البديلة. فنشأت الأنساق

الفلسفية والتيارات الفكرية للإجابة على هذه التساؤلات. الفيلسوف بهذا المعنى هو صاحب النسق الفلسفي. وليس لدينا فيلسوف بهذا المعنى، صاحب النسق، واضع نظرية في المعرفة، ونظرية في الوجود، ونظرية في القيم.

إنما الفيلسوف لدينا هو المفكر والناقد، وربما المثقف والأديب، صاحب الموقف النقدي من الموروث القديم الذي يحاول التخلص من سيطرته، والتحرر من سلطانه، ورفضه كسلطة للتقليد من أجل إفساح المجال للاجتهاد والرد على من أخذ إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض " كما قال السيوطي.

الفيلسوف هو الذي يعيد بناء التراث القديم بحيث يكون أصح لروح العصر. ويعيد الاختيار بين البدائل، واختيار بديل أنفع للناس. فما زالت الاختيارات عندنا منذ القرن الخامس الهجري، عصر الغزالي، هي السائدة بالرغم من مرور ألف عام عليها. فيها سقطت دول وقامت أخرى، وانتهت حضارات ونهضت أخرى. وتم اكتشاف نصف العالم، أمريكا وأفريقيا. وسقطت غرناطة، وفتحت القسطنطينية. وسقطت الخلافة، واحتلت الأمصار، وتحررت البلاد ثم عاد إليها الاستعمار من جديد في أشكال جديدة للهيمنة.

الفيلسوف هو الذي يحاول أن ينقل حضارته من مرحلة إلى مرحلة، من الإصلاح إلى النهضة، ومن الهيمنة إلى التحرر، ومن التبعية إلى الاستقلال، ومن التجزئة إلى الوحدة، ومن الاحتلال إلى حق تقرير المصير، ومن الظلم الاجتماعي إلى العدالة الاجتماعية، ومن الاعترا ب إلى إثبات الهوية، ومن السلبية واللامبالاة والفتور إلى الالتزام والفعل وأخذ المواقف. الفيلسوف هو ابن عصره، والقادر على تشخيص طبيعة المرحلة التي تمر بها حضارته، والتأثير في أكبر قدر ممكن من الناس، ومخاطبة الخاصة بالقول البرهاني، والمتفقين بالقول الجدلي، والعامه بالقول الخطابي⁽¹⁾.

والفيلسوف ثانياً هو الذي يتمثل الوافد بعد نقله والتعليق عليه

(1) انظر دراستنا: التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة 1980.

وشرحه وتلخيصه وعرضه والتأليف فى موضوعاته ثم الإبداع فيه. ولما كان الوافد الحديث هو الوافد الغربى وليس الوافد اليونانى، فكل ناقل له من أجل تمثله وليس من أجل شيوعه وإذاعته والترويج له ولاء للثقافة الغربية، وكل من يشرحه ويلخصه نقلا له من حضارة إلى حضارة، ومن وظيفة إلى وظيفة، وكل من يعرضه ويؤلف فيه ويبعد فى موضوعاته ولا يكتفى بحمله فهو فيلسوف.

ليس مهمة الفيلسوف الذى يتعامل مع الوافد الغربى نقله وانتزاعه غرسه من بيئة لزرعها فى بيئة أخرى، وبناء مذاهبه ومدارسه فى بيئة غير مواتية. فقد حاول رواد النهضة ذلك ببناء صروح ليبرالية أو قومية أو اشتراكية أو حتى إسلامية مستنيرة فوق أرضية تراثية محافظة موروثية ترفض الجسم الغربى. فسرعان ما انهارت، وظهر الموروث القديم حاملاً لحركات إسلامية محافظة تنهم التنوير بالتغريب. وكلما تفاقمت الأزمت، وتعاضمت التحديات، واتسعت رقعة احتلال الأراضى، وزاد البون بين الأغنياء والفقراء، وازداد التشرذم والتفتت والتجزئة، واشتد التغريب ظهرت الحركات الإسلامية باعتبارها المخلص من أزمت الأيديولوجيات العلمانية للتحديث، الليبرالية والقومية والماركسية.

فكل من يأخذ موقفاً نقدياً من الغرب، متميزاً عنه دون الانبهار به والذوبان فيه والترويج لبضاعته، محولا الغرب من كونه مصدرا للعلم كى يصبح موضوعا للعلم فهو الفيلسوف كما كان الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد فلاسفة بالنسبة للوافد اليونانى، ومسكويه بالنسبة للوافد الفارسى، والبيرونى بالنسبة للوافد الهندى.

والفيلسوف ثالثا هو الذى ينظر للواقع تنظيراً مباشراً ويحوله إلى نص. ولا يكتفى بتأويل النصوص القديمة أو الحديثة وإلا كان عبداً للنصوص. لا يستطيع أن يرى العالم إلا إذا وضع على عينيه نظارة نص يرى الواقع من خلالها. فلو كانت النظارة بيضاء ظهر العالم أبيضاً، ولو كانت سوداء ظهر العالم أسوداً، ولو كانت حمراء ظهر العالم أحمر. والأصدق فينا ما قاله محمود درويش:

واحتمى أبوك بالنصوص

فدخل اللصوص

لذلك اتهمنا بأننا حضارة نص، وفكر كتاب مثل أهل الكتاب. ويزهو الغرب علينا بأنه وحده صاحب حضارة الفعل، وحجة العقل بعد أن قضى على حجة النص. ونحن مارلنا نعتد على حجة النص. فالنص أساس العقل كما ورثنا عن الأشعرية القديمة. وعرفنا بالتأويل والاشتباه، والظاهر والباطن والفكر، والازدواجية والنفاق في السلوك، نظهر غير ما نبتن، ونبتن غير ما نظهر، نقول ما لا نعتقد، ونعتقد ما لا نقول. وهو ما لاحظته القرآن من قبل ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾. كما نقد القرآن (الذين يحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا).

الفيلسوف هو الذى يعطينا نظرية فى تحرير الأرض المحتلة ويقدم لنا ثقافة المقاومة، ولاهوت الأرض، وعقائد التحرير. وهو الذى يعطينا نظرية فى حرية المواطن، ويبحث عن الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديموقراطية فى وجداننا العربى المعاصر، وكما حاول الكواكبي فى "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد". وهو الذى يصوغ نظرية ويضع آلية للعدالة الاجتماعية. فأغنى أغنياء العالم منا. وأفقر فقراء العالم فىنا. وهو الذى يضع عقيدة للوحدة لحماية الأمة من التشرذم والتجزئة كما فعل الرومانسيون الألمان، فشته وهيجل وشلنج تدعيماً للوحدة الألمانية. وهو الذى يدافع عن الهوية ويضع قانوناً للذاتية كما حاول إقبال ضد التغريب، والتميع فى الغرب، والاعتراب فى الآخر. وهو الذى يعطى نظرية فى التنمية المستقلة ضد التبعية والمعونات الأجنبية والاستيراد وقيم الاستهلاك. وهو القادر على تجنيد الجماهير وحشد الناس، ونقلهم من اللامبالاة إلى الالتزام، ومن الفتور إلى الحماس كما حاول الكواكبي من قبل فى "أم القرى".

الفيلسوف هو صاحب الموقف الحضارى والذى يعى المرحلة التاريخية التى تعيشها حضارته، وينقلها من مرحلة إلى أخرى. الفيلسوف ابن عصره، وابن وقته، وابن زمنه، وابن مجتمعه. ليس هو الذى يعيش خارج الزمان، يعلم أرسلو كما يعلم حرفة، ويلقن المنطق كما يفعل الشيخ مع المريـد والذى ما زال يعيش فى العصر العثمانى.

ليس الفيلسوف هو مؤرخ الفلسفة الذى يحمل بضاعة يبيعه لمن يشاء

لأبناء وطنه ولدور النشر. الفيلسوف هو صاحب الوعي الفلسفى. فالفلسفة ليست معلومات فلسفية ينقلها معلم إلى تلميذ بل هو الذى يمارس فعل التفلسف. وفى فعل التفلسف تتوحد الذات والموضوع. فلا ذات بلا موضوع، ولا أستاذ بلا قضية. ولا موضوع بلا ذات، ولا وطن بلا مواطن.

إن الأستاذ المهنى، صاحب الصنعة هو وليد ظروف العصر، البحث عن الإغارات فى دول النفط التى تريد الصنعة لا الرسالة، والحرفة دون القضية أو التكسب بالعلم فى الداخل عن طريق الكتب الجامعية إذا ما ندرت الإغارات. كما أنه وليد الخوف فى الداخل من بطش الحكام.

كان معظم الفلاسفة فى التاريخ أصحاب قضايا وحملة رسالات كالأنبياء. يصدق عليهم "العلماء ورثة الأنبياء". كان سقراط صاحب قضية، تنوير الناس. وأفلاطون حامل رسالة، تربية المجتمع الأثينى وتكوين المدينة الفاضلة. وأوغسطين صاحب موقف، الدفاع عن المسيحية ضد الشكاك والمانويين والوثنيين فى الخارج والفرق الضالة أنصار دوناتوس وآريوس فى الداخل. ودافع سيجر البرابنتى باسم الرشدية اللاتينية عن العقل والطبيعة، عن الفكر الحر والعلم الدقيق. وأراد ديكارت وبيكون أن يؤسسا المعرفة الجديدة. كما أراد كانط أن يبين إمكانيات العقل، وهيجل أن يكشف عن قوانين الجدل، وفشته أن يؤسس نظرية فى العلم باعتبارها حرية، وماركس أن يغير العالم، وهوسرل أن يكمل المثالية الترنسندنتالية منذ البداية فى "الكوجيتو" حتى النهاية فى "الكوجيتاتوم"، منذ "الأنا أفكر" حتى "الأنا موضوع التفكير".

وفى تراثنا القديم، كان المتكلمون والفلاسفة والصوفية والأصوليون أصحاب قضايا. كانت الفرق الكلامية أحزاباً سياسية تؤول العقائد الدينية إلى أيديولوجيات للسلطة القائمة أو للمعارضة السياسية. وأراد الحكماء تمثل الواقد داخل الموروث فى جدل ثقافى بين الحضارات. وكان الصوفية يريدون الاستمرار فى المقاومة، مقاومة النفس، إذا ما استعصت مقاومة الظلم والطغيان فى العالم الخارجى. وأراد الأصوليون وضع مناهج للتشريع ومنطق للاستدلال فى ظروف متغيرة وعصور متوالية.

الثقافة رؤية، والفكر موقف، والعلم التزام.